تأثير الصناعة المعجمية لبلاد المشرق في التأليف المعجمي الأندلسي والمغربي (بداية من ق 3ه حتى ق 12ه)

THE INFLUENCE OF ORIENTAL LEXICOGRAPHY ON ANDALUSIAN AND MAGHREBI LEXICOGRAPHY (FOR THE 3TH CENTURY HIJRI TO THE 12TH CENTURY HIJRI)

صفية سعد سعود
جامعة المدية، الجزائر
Safiasadsaoud@gmail.com

تاريخ الإرسال:2018/12/28	تاريخ القبول:2019/05/06	تاريخ النشر2019/07/15

ملخص البحث

يعرِض بحثنا هذا لمرحلة مهمة من مراحل التأليف المعجمي في التراث العربي في بلاد الأندلس والمغرب، وذلك بغية دراسة مختلف جوانب وحيثيات هذه المرحلة من خلال علاقتها بالصناعة المعجمية في بلاد المشرق.

هذه المرحلة هي مرحلة القرن الرابع الهجري الذي عرف ازدهارًا وتطورًا كبيرًا في بلاد المغرب والأندلس في مختلف مجالات الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية، وهذا التطور كان نتيجة لسياسة حكيمةٍ واجتهادات علماء كبار، ونال ميدان تأليف الكتب نصيبه من هذا التطور، وكذلك الحال بالنسبة للصناعة المعجمية التي كانت مجالا خصبا برع فيه العلماء، فراحوا يصنفون العديد من المعاجم، وفي شتى المجالات المعرفية، وهذا التأليف المعجمي لم يظهر هكذا من العدم بل كان مستمدًا من مختلف الدراسات المهمة التي كانت موجودةً في بلاد المشرق والتي انتقلت مضامينها مع هجرة العلماء من مدن العراق نحو الأندلس والمغرب، فحملوا بذلك معهم البذور الأولى للصناعة المعجمية الأندلسية متأثرين بمدرسة الخليل ولاحقيه، فكان معجم العين الدائرة الأولى والكبرى التي حام حولها كبار علماء وأخذوا منها منهجهم في تأليف معاجمهم، وسنحاول في هذه الدراسة بيان هذا التأثر وأهم مظاهره.

الكلمات المفتاحية: المعجمية- المعجم العربي- المعجم المشرقي- المعجم الأندلسي

Abstract:

Our research shows that a major phase of the lexical composition in Arabic tradition in Andalusia and the Maghreb, in order to study the various aspects and purpose of this point regarding the lexicography in the Levant.

This stage is the fourth century Hijri who knew a great development and prosperity of the Maghreb and Andalusia in the various areas of political, social and scientific life, and this development was a result of the wise policy and jurisprudence of senior scientists and the field of writing books its share of this development and to whom the copyright industry has also been a lexical familiar space scientists with so that they begin to excelled in many books and dictionaries and in different areas of knowledge, this creation of dictionary thus appears out of nowhere but has been derived from various important studies that were present in the Levant and moved and surrendered their content with the migration of scientists to the Iraq and in Baghdad about Andalusia and the Maghreb, they carried with them the first seeds of Andalusian lexicography succumbed to his proposed school of Alkhalil Ben Ahmed, Al - Ain dictionary was the first source from which experts have compiled their dictionaries.

The most important aspects of this impact are what we will try to study in this research.

Keywords : the lexicography - glossaries - Maghreb



مقدمة:

ازدهرت الحركة اللغوية في الأندلس وخاصة المعجمية منها خلال القرن الرابع الهجري، والقرون التي تبعته، فتطور مع هذه الحركة تأليف المعاجم في الأندلس والمغرب، وظلّ اللغويون والعلماء يعملون على هذا الجانب من التأليف لسد ثغرات في المكتبة الأندلسية وتلبية لحاجات المتعلمين الذين كانوا يزدادون في الأندلس طلبًا للعلم والمعرفة مقبلين على علمائها الكبار هناك، وألّفت هذه المعاجم أيضًا مواكبةً للتطور اللّغوي والحضاري الذي عاشته الحضارة الأندلسية على امتدادها التاريخي، وهذا التأليف المعجمي لم يظهر هكذا من غير مرجعٍ وخاصة في بداياته الأولى، بل إنّ المدرسة المعجمية المشرقية بجميع فروعها قد أسهمت وبقوة في هذا التأليف، إذْ أثّرت مبادئها وقوانينها في التأليف المعجمي الأندلسي والمغربي أيما تأثير، وهو الأمر الذي سنتطرق إليه في هذا البحث الذي وسمناه بـ " **تأثير الصناعة المعجمية لبلاد المشرق في التأليف المعجمي الأندلسي والمغربي (بداية من ق 3ه حتى ق 12ه)**" محاولين معرفة أين ظهر هذا التأثير، من خلال إبراز نماذج من

المؤلفات والمعاجم التي تأثرت بالمدرسة المعجمية المشرقية في تأليفها، محاكاة في المنهج وتأليفًا على منوال المعجمية المشرقية، ثمّ تلحقها مرحلة أخرى هي مرحلة ما بعد التأثر أو مرحلة الإبداع المعجمي في الأندلس والمغرب، وذيلنا بحثنا بخاتمة بأهم النتائج التي استخلصناها من هذا البحث.

أمّا الهدف من هذا البحث فهو التنبيه إلى وجود تأليف معجمي عربي أندلسي ومغربي متميز، كان للدرس المعجمي المشرقي أثر واضحٌ فيه، كما نسعى إلى تنبيه الباحث في التراث المعجمي على أنّ هناك من المعاجم الأندلسية والمغربية ماهو موضع بحث جدير بالاهتمام تغافل وغفل عنه الكثيرون، وليس الهدف من هذا البحث هو حصر كلُ المؤلفات المعجمية للمدرسة المغربية والأندلسية وهو مما لا يسعنا المقام لطرحه، وإنمّا تقديم بعض النماذج المشهورة والتي تعتبر بحق معاجمًا.

1. انتقال وتأثير المؤلفات والعلوم اللغوية من المشرق العربي إلى الأندلس والمغرب:

عرفت الأندلس نهضة كبيرة في الحركة العلمية وخاصة اللغوية منها مع بداية القرن الثالث الهجري، وانتقال العلوم من المشرق العربي، وذلك من خلال الرحلات من وإلى الأندلس والتي كانت فريضة الحج المسهِم الأول فيها، فكان طلّاب العلم في رحلتهم إلى بيت الله المحرّم ذهابًا أو إيابًا يأخذون من علماء الحجاز مرورًا ببغداد ومصر، فيتزودون منهم العلوم الدينية والدنيوية، وبعد دخول مختلف العلوم لبلاد الأندلس أصبحت الرحلات العلمية واجبةً على طلاب العلم فكأنّها أصبحت فريضة ثقافية يؤدونها[1]، فعلى طالب العلم الراغب في تحصيل المعرفة أن يرتحل إلى ذلك الجانب الآخر الذي تطورت فيه العلوم، فكان منهم من يعود لوطنه ومنهم من يطيب له البقاء في بلاد المشرق، وهذا ناتجٌ عن ولعهم الشديد بالشرقي وهيمنته العلمية كما يذكر ذلك ابن خلدون في مقدمته[2]، فكان ذلك الاهتمام الكبير بكل ما هو وافد من المشرق، وكان التتلمذ على يد العلماء المشارقة هو مبلغ ومطمح الأندلسيين والمغاربة، فكثُر الرحالة إلى المشرق وازداد اهتمامهم بطلب العلم من هناك، **فأبو العباس المقري التلمساني**(ت1041ه) يحصي 307 راحلًا أندلسيًا إلى المشرق[3]، وهذه الرحلات كما ذكرنا كانت بسب التفوق العلمي الذي عرفه المشرق العربي.

وليست هذه الرحلات وحدها من أثرى الحركة العلمية اللغوية في الأندلس، بل وُجدت عوامل وأسباب أخرى كانتقال كبرى المؤلفات اللغوية **للفراء(ت207ه)** و**الكسائي** (ت189ه) مع التجار المسافرين نحو المشرق لقضاء مختلف حاجياتهم، وكذلك حرص الحكام الأندلسيين على الرقي بالعلم وتطويره من خلال تحفيز العلماء والمؤلفين وإغداقهم بالمال والهدايا، مما جعل

الحركة اللغوية وخاصة في القرن الرابع الهجري تزداد تطورًا تطورًا سواءً بالتأليف أو بالتعليم، ومن بين الحكام الذين كان لهم كبير الأثر في ازدهار الحركة العلمية بالأندلس الحكَم المستنصر(ت366ه) الذي يعد عالماً فذًا في عصره، أولى اهتمامًا كبيرًا بنقل العلوم والمؤلفات وجمعها في مكتبته «فقد كان محبًا للعلوم مكرمًا لأهلها جماعًا للكتب في كل أنواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله...وكان يبعث في الكتب إلى الأقطار رجالًا من التجار ويرسل إليهم الأموال لشرائها... وجمع بداره الحذّاق في صناعة النسخ والمهرة في الضبط والإجادة في التجليد، واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده إلّا ما يُذكر عن الناصر العباس المستضيء»[4]، ففي عهده انتشر الاهتمام بالعلوم وبالكتب وارتحل العلماء لطلب العلم وجلب المؤلفات من المشرق والعمل على تدارسها وتعليمها لطلاب الأندلس، وكذا الاستفادة منها في التأليف وحتى التأليف على منوالها.

فكان المستنصر الراعي الأول لهذه الحركة والقائم عليها من خلال تطبيقه لاستراتيجية دعم العلماء والمؤلفين عامةً واللغويين منهم خاصة، وحتى دعوته لعلماء من خارج الأندلس من أجل الأخذ عنهم ومثاله دعوته **لأبي علي القالي** (ت356ه) الذي دخل الأندلس سنة (330ه/941م)[5] ملبيًا هذه الدعوة وجالبًا معه أحمالًا من الكتب العربية القديمة، من أجل تعليمها لطلبة العلم هناك.

وفي هذا المقام سنحاول عرض مجموعة من الآثار اللغوية وخاصة المعجمية منها والتي تأثرت بالتأليف المعجمي في المشرق العربي وذلك على سبيل المثال لا الحصر.

فقد كان تأثير اللغويين المشارقة واضحًا في علماء الأندلس وفي مؤلفاتهم قبل القرن الرابع هجري، وطلبهم للعلم من المشرق وجمع المؤلفات والتتلمذ على يد العلماء هناك مهما بلغ بُعد المسافة دليل آخر على رغبة الأندلسيين وحبهم للعلم وطلبه، فنجد مثلًا **عبد الرحمن أبو موسى الهواري (ت228ه)** الذي صنفه **أبو بكر الزبيدي** (ت379ه) في طبقاته ضمن الطبقة الأولى من النحويين واللغويين الأندلسيين، أنّه «قد رحل في أول خلافة عبد الرحمن معاوية رضي الله عنه، فلقي مالكًا ونظراءه من الأئمة، ولقي الأصمعي وأبا زيد الأنصاري»[6]، ومثله **جودي بن عثمان النحوي** (ت198ه) الذي رحل إلى المشرق «فلقي الكسائي والفراء و غيرهما، وهو أول من أدخل كتاب الكسائي»[7]، وكذلك **عباس بن ناصح الجزيري** و **محمد بن عبد السلام الخشني** و **محمد بن موسى الأقشتيق** (ت307ه) **ومحمد بن يحيى الربَاحيّ** (ت358ه) و **منذر بن سعيد البلوطي**(ت270ه)، وغيرهم ممن ذكرهم الزبيدي وأكّد على أنّهم كانوا يرتحلون إلى المشرق ويأخذون عن علماء العربية هناك أمثال **أبو**

عثمان المازني (ت236ه) و**العباس بن الفرج الرياشي** (ت257ه) و **أحمد بن جعفر الدينوري** (ت289ه) و **أبو الحسين ابن ولّاد**(ت298ه) وغيرهم ممن أخذوا عنهم النحو وعلم الحديث، فأدخلوا بذلك كتبهم وكتب سابقيهم ككتاب **سبويه** (ت180ه) **و الخليل بن أحمد** (ت175ه) إلى الأندلس عن طريق هؤلاء.

فأمام هذا الزخم من الكتب اللغوية حدث التأثير المشرقي في علماء الأندلس، وخاصة في حقل تأليف المعاجم على غرار الحقول اللغوية الأخرى، فقد عرف الأندلسيون معجم العين للخليل بن أحمد بحسب الزبيدي خلال القرن الرابع الهجري وذلك من خلال الرحلات طبعا كما ذكرنا، فكان **ثابت بن عبد العزيز السرقسطي**(ت313ه) وابنه **قاسم** أوّل من أدخل كتاب العين الأندلس[8]، ودخلت نسخة أخرى من العين على يد **منذر بن سعيد البلوطي** مروية عن ابن ولاد[9]، فراح العلماء يتدارسونه ويولونه اهتمامًا خاصًا بالشرح والاستدراك والتأليف على منواله لعلمهم بما يحمله من قيمة علمية كبيرة، فهذا أبو علي القالي (ت356ه) يؤلف معجمه البارع ينهج فيه نهج الخليل من حيث النظام الصوتي، والذي اعتبره أحد الباحثين نسخة من العين وهذا راجع لكثرة ذكر الخليل في البارع وكثرة النقل عنه[10]، أي أن اللغويين الأوائل في الأندلس اعتبروا العين مؤلفهم الأم الذي استقوا منه دراساتهم وتأليفهم المعجمي فيما بعد، وأبدعوا باتخاذهم منهجًا خاصًا في التأليف المعجمي كان له أثره الخاص في إطار التأليف المعجمي العربي وهو ما سنوضحه لاحقا في البحث.

كما نجد أنّ علماء الأندلس قد اهتموا بنوع آخر من المعاجم قبل القرن الرابع الهجري وذلك خلال القرن الثالث الهجري، وهي معاجم الغريبين والتي ألفوا فيها مقتفين أثر الأوائل في هذا النوع من التأليف المعجمي، ومثاله تأليف **عبد الملك بن حبيب السلمي**(ت239ه) لكتاب في غريب الحديث ومثله تأليف **عبد الله محمد بن عبد السلام الخشني**(ت286ه) لكتاب في هذا النوع وكلاهما مفقود، وتأليف آخر اعتمد فيه صاحبه منهج الغريبين على طريقة أبي عبيد القاسم بن سلام(ت224ه) وأبي محمد بن قتيبة (ت276ه) في غريبيهما وهو كتاب **الدلائل** لقاسم بن ثابت السرقسطي الذي ألّفه بالأندلس سنة 299ه[11]، فهذا تأثير مشرقي واضح في تأليف هذا النوع من المعاجم سار فيه لغويو الأندلس مسار لغويي وعلماء الحديث في المشرق العربي.

ذكرنا بإيجاز تأثر علماء اللغة بالأندلس بالمدرسة الأم في المشرق، وهو الحال كذلك في المغرب العربي فقد تأثر هناك النحويون واللغويون أيما تأثر بعلماء المشرق وبكتبهم عبر مختلف المراحل، فكان تدارس المعاجم وتأليفها من اهتماماتهم أيضًا فقد عرفوا هذا المجال مع العلماء الأندلسيين خلال القرن الرابع الهجري من خلال رحلاتهم والبحث عن أهم الكتب في هذا المجال،

فألفوا كتبًا تعد البدايات الأولى لتأليف المعاجم نجد منهم **عبد الملك بن قطن المهري القيرواني المكنى أبا الوليد** (ت253ه) والذي يذكره الزبيدي بأنّه لقي في رحلاته ابن الطرماح وعياض بن عوانة وقتيبة النحوي، كما يذكر أنه قد ألّف كتابًا بعنوان كتب الألفاظ[12].

وهو كتاب انتهج فيه صاحبه ترتيب المواد وفق أبواب الموضوعات والحقول المعرفية[13]، متأثرًا بمنهج **ابن السّكيت** (ت243ه) في مؤلفه كتاب الألفاظ الذي يعتبر أقدم معجم في المعاني، فمؤلف أبو الوليد المهري يعد من بدايات التأليف المعجمي في المغرب العربي بعد حصول التأثر من التأليف المعجمي في بلاد المشرق العربي، وهناك العديد أيضا من المعاجم التي ألّفت في المغرب العربي مع بداية القرن الرابع الهجري وحتى القرن الثاني عشر الهجري والتي كانت بحق معاجم رسخت مادتها العلمية واستفاد منها علماء المغرب والمشرق معًا، وسنأتي لذكر بعضها في موضعٍ آخر من هذا البحث.

2. تأثير المدارس المعجمية المشرقية في التأليف المعجمي بالأندلس والمغرب:

يعتبر تأثير الدراسات المعجمية المشرقية ذو أثرٍ كبيرٍ في التأليف المعجمي الأندلسي، فالمعاجم والمؤلفات التي تمخضت عن ذاك الإنتاج المعجمي الخصب والغزير لم يتجاوزها اللغويون والمعجميون في الأندلس دون أن يضعوا مؤلفاتهم على نسق إحدى تلك المدارس وينهجوا نهج سابقيهم في هذا الحقل اللغوي.

وبدايات هذا التأليف نجدها مع أبي علي القالي (ت356ه) الذي ألّف معجمه "البارع" بطلب من الحكم المستنصر أو بالأحرى هذا الطلب جاء لإتمامه وهذا استنادًا لما ذكره القفطي في إنباه الرواة عن ما شوهد بخط يد ولده عن سبب تأليف القالي لمعجمه[14]، فالبارع إذًا أوّل معجم في الأندلس[15] _على حد تعبير محقق كتاب البارع_ سار فيه صاحبه على منهج الخليل في ترتيب حروف المعجم ترتيبًا صوتيًا ولم يرتبه ترتيبًا ألفبائيًا بالرغم من أنّ هذا النوع كان قد شاع في المشرق في تأليف المعاجم كما وافقه أيضا من حيث منهج اعتماد مبدأ الأبنية عامة و مبدأ التقاليب في ضبط المادة اللغوية، غير أنّ القالي قد خالف الخليل في ترتيب بعض حروف معجمه بالتقديم والتأخير، فقد جاء معجمه البارع مرتبًا على النحو التالي كما ذكر ذلك المستشرق **فولتنFulton** في تقديمه للقطعة التي نشرها بطريقة التصوير وهي: **ه-ح-ع-خ-غ-ق-ك-ض-ج-ش-ل-ر-ن-ط-د-ت-ص-ز-س-ظ-ذ-ث-ف-ب-م-و-ا-ي.**

ولم يذكر موقع الهمزة.

أمّا ترتيب الخليل فهو على النحو التالي: **ع-ح-ه-خ-غ-ق-ك-ج-ش-ض-ص-س-ز-ط-د-ت-ظ-ذ-ث-ر-ل-ن-ف-ب-م-و-ا-ي**[16]، إذا قارنا بين الترتيبين يتّضح أنّ القالي قد خالف الخليل أولًا في ترتيب الأحرف الثلاثة الأولى، وخالفه أيضًا في ترتيب بعض الأحرف الأخرى، إلّا أنّ هذا الاختلاف يعدّ ثانويًا مادام المنهج الصوتي قائمًا ومتبعًا.

فالقالي بهذا اتّبع نهج المدرسة المعجمية الخليلية في المشرق العربي وتأليفه للبارع ولكتابه المقصور والممدود أيضًا خير دليل على أنّ أثر المدرسة المعجمية المشرقية قد أرسى قواعده الأساسية في التأليف المعجمي الأندلسي حتى وإن وُجدت بعض الإنزياحات عن المدرسة الأم هي باب الإبداع والسبق بطبيعة الحال.

وبعد ظهور معجم البارع في الأندلس ألّفت حوله وحول العين العديد من الشروح والحواشي والتعليقات أهمها وأشهرها "مختصر العين" الذي يعتبر ثاني معجم ظهر بالأندلس للزبيدي تلميذ القالي وهو اختصار للعين نال رواجًا في الأندلس وخارجها، ونجد كتابا آخر للمؤلف نفسه وهو "استدراك الغلط الواقع في كتاب العين" وهو كتاب حقق مقدمته عبد العلي الودغيري وحقق الباقي منه وقدّم له صلاح مهدي الفرطوسي، وكذا كتاب "استدراك على كتاب البارع" حول البارع فقط لأبي مروان عبد الملك بن سراج (ت 489ه)، والعديد من الحواشي والتعليقات التي أفادت في الاحتفاظ بقدر هامٍ مما ضاع من البارع[17] لأنه لم يصل إلينا كاملًا.

ومن المعاجم اللغوية التي ألّفها أصحابها على منهج الخليل كتاب "المحكم" لأبي الحسن ابن سيدة المرسي (ت485ه) الذي ألّفه على حروف المعجم مرتبة ترتيبًا صوتيًا فاتّبع القالي بذلك أيضًا، ولم يعتمد نظامًا آخر في الترتيب انتشر في المشرق، هو ذاك الذي ظهر مع معجم الصحاح للجوهري (ت398ه) والذي أحدث ثورة في التأليف المعجمي لأنه خالف-هذا الأخير- منهج الخليل باعتماده الترتيب الألفبائي لا الترتيب الصوتي وكذلك اعتماد آخر الكلمة في ترتيب الأبواب، فرغم ظهور هذا الترتيب الجديد إلاّ أنّ ابن سيدة قد تأثر بالخليل والقالي في تأليف معجمه هذا، وهو معجم وصفه ابن منظور بأنه من أكمل المعاجم وعدّه من أمهات الكتب في اللغة وهو في ذلك مع معجم التهذيب للأزهري[18]، وله مصنف لغوي آخر وهذه المرة خالف فيه منهج الخليل والقالي وهو كتابه "المخصص" وهو مقسمٌ إلى أبوابٍ كما يذكر هو ذلك في مقدمة المحكم فيقول: «...وألّفت كتابي الملخَّص، والذي أسميته "المخصَّص" وهو على التبويب، في نهاية التهذيب»[19]، فقد تأثر واستفاد[20] ابن سيدة في معجمه الثاني من مختلف الدراسات والمعاجم السابقة له والتي ألّفها أصحابها وفق

الموضوعات كغريب أبي عبيد، وفقه اللغة للثعالبي (ت430ه) وألفاظ ابن السكيت وغيرها من الرسائل اللغوية التي سبقت تأليفه هذا، فابن سيدة قد تأثر بالمدرسة المعجمية الخليلية و بمدرسة الترتيب الموضوعاتي فكان بذلك تأليفه للمعجميْن ثريًا بمادةٍ لغويةٍ يستفيد منها الباحث.

وأُلف معجمٌ آخر في القرن الخامس الهجري ألّفه صاحبه على مبدأ المدرسة الألفبائية التي أرسى قواعدها الجوهري (ت393ه) في الصحاح وقبله الشيباني (ت213ه) في كتابه "الجيم"، و المعجم هو "المُوعَب" لأبي غالب تمام بن غالب المعروف بابن التيّاني (ت436ه)، وقد ورد عند العلماء أنّه كتاب «وإن كان مبوبًا حسب الأبنية فإنّ مواد كل باب قد رتبت على طريقة الصحاح»[21]، فهو معجم ألفبائي تأثر صاحبه في ترتيبه بمن سبقوه من المدرسة المعجمية الألفبائية في المشرق.

ما تقدّم طرحه نماذج فقط من معاجمَ لغويةٍ ألّفت في الأندلس اعتمد فيها أصحابها منهج سابقيهم في هذا النوع من التأليف المعجمي في المشرق العربي، فاتضّح بذلك تأثرهم بالمدارس المعجمية المشرقية على اختلافها، وهو الحال كذلك بالنسبة للمعاجم التي أُلِّفت في المغرب العربي ابتداءً من القرن الرابع الهجري على يد علماء اللغة في المغرب العربي من القيروان وطرابلس والمغرب الأدنى والأقصى والأوسط، نجد منهم المهري الذي ألّف كتاب الألفاظ وقد تقدّم ذكره في هذا البحث، وهناك مؤلفٌ آخر نال حظه من الشهرة والذيوع هو كتاب "كفاية المتحفظ في اللغة" لابن الأجدابي الطرابلسي (توفي حوالي 470ه)، الذي تؤرخ له بعض المصادر أنّه ألّفه في القرن الخامس الهجري، يعدّ من أشهر ما ألّف، يصفه **الحموي** بأنه كتاب «صغير الحجم كثير النفع»[22] ، فهو معجم لم يكن كالمعاجم التي سبق ذكرها ذات الضخامة وموسوعية المادة العلمية فيها، بل هو كتاب يحوي قدرًا لابأس به من ألفاظ العربية موجه للمتعلم وليس لمن أراد التبحر في علوم العربية وهذا ما يتّضح من قول المؤلِف نفسه في مقدمة كتابه، يقول ابن الأجدابي: « هذا كتاب مختصر في اللغة، وما يُحتاج إليه من غريب الكلام، أودعناه كثيرًا من الأسماء والصفات، وجنبناه حوشي الألفاظ واللغات، وأعريناه من الشواهد، ليسهل حفظه ويقرُب تناوله، وجعلناه مغنيًا لمن اقتصر في هذا معينًا لمن أراد الاتساع فيه، وهو على التبويب»[23]، فهو معجم ألّفه صاحبه مختصرًا كما ذكر، خاليًا من الشواهد القرآنية أو الشعرية، موجه لمن أراد تعلم معاني العربية، كما أنّه رتبه وفق موضوعاتٍ وأبواب لا وفق ترتيبٍ آخر، اتّبع فيه نهج من سبقوه في التأليف بحسب الموضوعات، وهي أبواب في صفات الرجال والنساء، والحيوان والأواني وغيرها...

يظهر تأثر ابن الأجدابي بمدرسة المعاني المعجمية من تأليفه هذا بالرغم من أنّه لم يرتحل يومًا إلى المشرق[24]، غير أنّه استفاد ممن كانوا يدخلون طرابلس ومن العلماء الذين تتلمذ على يدهم هناك، فانتقلت إليه مبادئ ومنهج تأليف المعاجم، مع انتقال العلوم والمعلمين والمؤلفات اللغوية نحو المغرب العربي.

وظهر قبل كتاب ابن الأجدابي السابق الذكر كتابٌ آخر ذكره الحموي في معجمه الأدباء، هو كتاب "الجامع في اللغة" لمحمد بن جعفر القزاز القيرواني[25] (ت412ه) وهو مرتبٌ بحسب حروف المعجم، ووصفه الحموي بأنّه كبير وذو قيمةٍ عاليةٍ وقاربه من معجم التهذيب للأزهري (ت370ه).

هذا ذكرٌ لبعض المعاجم اللغوية في الأندلس والمغرب العربي، وليس جلّها، لأنّ الغرض من ذكرها في هذا البحث كما أشرنا سابقًا ليس حصرها، وإنّما إبراز مدى تأثر اللغويين الأندلسيين والمغاربة في تأليفهم لمعاجمهم بالمدارس المعجمية المشرقية التي أرست قواعدها بقوة في ميدان التأليف المعجمي، فنلاحظ فعلًا أنّ تأثير المدارس المعجمية المشرقية واضحٌ وبشكل جلي في مناهج التأليف عند الأندلسيين ، إذْ لا تخلو معاجمهم من المبادئ والأنظمة المعجمية المشرقية.

3. مرحلة ما بعد التأثر أو مرحلة التأليف المتخصص:

بعد تأثر اللغويين الأندلسيين والمغاربة باللغويين المشارقة في المرحلة الأولى من تطور الحركة اللغوية، جاءت مرحلة أخرى تجاوز فيها علماء اللغة في الأندلس نوعًا ما ذلك التأثر بعد استيعابهم لما تأثروا به، فأبدعوا وأنتجوا نوعًا جديدًا من التأليف المعجمي لم يسبقوا إليه من قبل، وهو نتيجة لنضج التأليف المعجمي عندهم، بعدما تتلمذوا فيه على يد علماء المعجمية المشرقية.

وما سنعرض له في هذا الموضع من البحث هو إظهار لبعض النماذج والأمثلة من المعاجم الأندلسية والمغربية التي كانت لها بصمتها الخاصة في التأليف المعجمي والتي استفاد منها الباحثون ولا يزالون إلى يومنا هذا.

والمعاجم المذكورة أبرزت الشخصية المتفرّدة التي عرفها الأندلس، مبرزةً بدورها منهجًا جديدًا في التأليف هو تأليف المعاجم المتخصصة في مجالاتٍ علميةٍ معينةٍ، ترقى إلى التصنيف المعجمي اليوم، وليس معناه أنّ العرب لم يعرفوا هذا النوع من التأليف إطلاقًا، فرسائل الموضوعات التي ألّفها اللغويون العرب قبل القرن الرابع الهجري تعتبر من البذور الأولى لهذا التأليف، فقد كانت الرسائل اللغوية مدونات لغوية حملت مصطلحات في مجالات معينة، ولكنّ أصحابها لم يخضعوها لنفس المبادئ التي عرفها المعجم العربي في

الأندلس والمغرب بعد القرن الخامس الهجري وإلى غاية القرن الثاني عشر الهجري.

ففي الأندلس مثلًا أُلفت معاجمٌ كان لأصحابها فضل السّبق في التأليف، وأثاروا بذلك مجالًا جديدًا للتأليف المعجمي، فنجد على سبيل المثال كتب الأفعال التي أُلّفت في مجالٍ أكثر تخصصًا من المجال اللغوي العام قد حظيت بالتأليف من طرف لغويين كبار أمثال أبي عثمان محمد بن سعيد السرقسطي المعروف بابن الحداد (ت400ه) بتأليفه لأشهر كتاب في هذا المجال **"كتاب الأفعال"**، أي ضمنه الأفعال فقط، رتبه ترتيبًا صوتيًا متبعًا في ذلك **سبويه** (ت180ه) مع مخالفة بسيطة في الترتيب[26]، فترتيب ابن حداد هو على النحو التالي: **ء-ه-ع-ح-خ-غ-ق-ك-ض-ج-ش-ل-ر-ن-ط-د-ت-ص-ز-س-ظ-ذ-ث-ف-ب-م-و-ي**

أمّا ترتيب سبويه فهو على كما يلي: **ء-ا-ع-ح-خ-ق-ك-ج-ش-ي-ض-ل-ن-ر-ط-د-ت-ز-س-ص-ظ-ذ-ث-ف-ب-م-و.**

من هذين الترتيبين يتّضح أنّ ابن حداد قد خالف سبويه في ترتيب بعض الأحرف بتقديم بعضها وتأخير البعض الآخر، ولم يضع ابن حداد لألف حيزًا في ترتيبه.

أمّا بالنسبة لترتيب المواد داخل هذه الأحرف فقد رتبها ترتيبًا جديدًا، وعدّها أربعة أبوابٍ داخل كلّ حرف وهي:

1- باب فعلَ و أفعلَ باتفاق معنى.
2- باب فعلَ وأفعلَ باختلاف معنى.
3- باب الثلاثي المفرد.
4- باب الرباعي، وماجاوزه بالزيادة ممّا لم يستعمل منه ثلاثي في معناه[27].

وذكر داخل حرفٍ واحدٍ هو حرف **الخاء** باب **الخماسي** زيادةً على هذه الأبواب الأربعة.

وفي المجال اللغوي نفسه ظهرت كتب الأسماء التي تهتم بجمع الأسماء والصفات فقط وهو حقل لغوي متخصص أيضًا، وأشهرها في الأندلس هو كتاب المثلثات لأبي محمد البطليوسي (ت521ه)[28] متبعًا فيه منهج **قطرب** (ت206ه) في كتابه، مرتبًا إياه ترتيبًا جديدًا هو الترتيب الأبجدي المغربي الذي يختلف عن الترتيب الأبجدي الأندلسي والترتيب الأبجدي المشرقي[29]، كما أنّه أغزر مادة من كتاب قطرب.

وهناك نوع آخر من المعاجم المتخصصة في غريب الحديث وغريب القرآن وهي كتب الغريبين التي ألفها الأندلوسيون كما ذكرنا سابقًا مع بداية

الفتح الإسلامي للأندلس عنايةً منهم بالقرآن والعربية، وأشهر ما أُلّف في الأندلس في هذا المجال تنطبق عليه صفة المعجم العربي فعلًا هو كتاب "تحفة الأريب بما في القرآن من غريب" لأثير الدين أبي حيان النحوي (ت745ه)[30]، وهو معجم مرتّب ترتيبًا ألفبائيًا مبتدئًا بالهمزة ومنتهيًا بالياء، ولم يعتمد على الشواهد الشعرية في شرحه للألفاظ مختصرًا إياها بمعانيها التي وردت في القرآن.

وعرف الأندلوسيون بعد ما سبق من التأليف حقلًا آخر ألّفوا فيه هو مجال الطب والصيدلة، وضعوا فيه مؤلفات كبرى ترقى إلى أن تكون معاجم متخصصة في هذا المجال بحق، وقد عُرف هذا النوع من المعاجم في بدايات تأليفه في الأندلس والمغرب بكتب الأدوية المفردة، فظهرت بواكيره مع مؤلَّفٍ للشاعر الشهير أمية بن أبي الصلت بن عبد العزيز (ت252ه) بعنوان "كتاب الأدوية المفردة"، ألّفه صاحبه في أنواع الأدوية ورتّبه ترتيبًا موضوعيًا بحسب الأمراض[31]، أمّا في المغرب العربي فإنّ أشهر كتاب في هذا المجال هو لابن الجزّار القيرواني (ت396ه) الطبيب المشهور وهو كتاب "الاعتماد في الأدوية المفردة"[32]، ولقد كان له فضل سبق الأوائل في أنّه فصل بين مجال الطب والصيدلة في هذا الكتاب الذي ضمّنه مصطلحات للأدوية فقط وليس كل الأدوية بل الموجودة في عصره فقط والمشهور منها والسهل إيجاده فقط، كما أنّه رتّبه ترتيبًا موضوعيًا بحسب درجات الأدوية (حار، بارد، يابس، رطب)[33]، وهذا دليل على أنه معجم متخصصٌ موجّهٌ لجمهورٍ خاصٍ هم الصيادلة وليس لعامة الناس.

أمّا في الأندلس فأشهر مصنَفٍ طبي يمكن أن يُطلق عليه صفة المعجم الخاص بامتياز هو كتاب "الجامع لمفردات الأدوية والأغذية" للعالم والطبيب الشهير **ابن البيطار** (ت 646ه)، ألّفه في أواخر حياته، رتبه ترتيبًا ألفبائيًا، باعتماد الحرفين الأول والثاني في المصطلح، ولم يلتفت إلى الحرف الذي يليهما، وقد سمّاه الجامع لأنّه ضمّنه مجموعة مصطلحات كبيرة وردت في معاجم العرب واليونان في مجال الأدوية والطب قبله[34]، فترتيبه للمداخل مثلًا في حرف الباء ترد بحرف الباء يليها حرف الألف، مثل: بابونج، باذرنجبويه، باذروج، باقلا، بان، باذنجان[35]، ثمّ تأتي الباء تليها الباء مثل: بِبرالة، بَتع، بَجم، بجًّ، بخور مريم...إلخ[36].

وقد استمّر هذا النوع من التأليف إلى غاية القرن الثاني عشر الهجري في المغرب العربي، ففي القرن العاشر الهجري ألّف الغساني المغربي المعروف بالوزير كتابًا في أواخر هذا القرن (994ه) سمّاه "حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار" اعتمد فيه الترتيب الأبجدي المغربي[37]، وتواصل هذا التأليف

إلى القرن الثاني عشر الهجري في حقل الأدوية هو كتاب في الأدوية المفردة لعبد الرزاق بن حمادوش الجزائري الذي ألّفه ضمن كتابه "الجوهر المكنون من بحر القانون" في الجزء الرابع وهو الجزء الذي بقي منه، وعُرف ونُشر بعنوان "كشف الرموز في بيان الأعشاب"[38]، وهو عبارة عن معجم صيدلي وطبي يحمل أوصافًا لمصطلحاتٍ طبية وصيدلانية وأسماء نباتات وعقاقير وغيرها، رتّبه ترتيبًا أبجديًا مغربيًا، وطُبع أولًا بباريس سنة 1874م، ثمّ طبع بالمطبعة الثعالبية بالجزائر سنة 1321ه[39]/1903م.

وعودة للقرن السابع الهجري نجد كتابا آخر في المغرب العربي، يعتبر من المعاجم المتخصصة في مجال المعادن والأحجار الكريمة، وهو كتاب " أزهار الأفكار في جواهر الأحجار" لأبي العباس أحمد بن يوسف بن محمد التيفاشي (ت651ه)، وهو كتاب يمكننا القول بأنّه من المعاجم المتخصصة في ميدان الأحجار الكريمة، وذلك لما ضمّنه من أوصافًا للهذه الأحجار، وقد ذكر خمسةً وعشرين حجرًا بالتفصيل (الجوهر، الياقوت، الزمرد، الزبرجد، البلخش، البنفش،...)، وقد ذكر كل واحدٍ من هذه الأحجار بفصل منفردٍ، يورد فيه وصفه وسبب تكوينه، و يورد المكان الذي تكوّن فيه، ثمّ يذكر جيده و رديئه ومغشوشه وخالصه، ثم يأتي على القول في خواصه ومنافعه، وأخيرًا قيمته وثمنه في السوق[40]، وهو معجم حققه محمد يوسف حسن و محمود بسيوني خفاجي، بإشراف الهيئة المصرية العامة للكتاب، ونشر سنة 1977م كطبعة أولى للكتاب.

ممّا سبق ذكره يتضح بأنّ المعاجم العربية المغربية والأندلسية مع بداية القرن الخامس الهجري وإلى القرن الثاني عشر الهجري قد عرفت مرحلة جديدة في التأليف المعجمي هي مرحلة التأليف المتخصص الذي أبدع فيه اللغويون في هذه الفترة، بوضعهم لمعاجمَ خُلّد ذكرها في صنف المعجم العربي الأندلسي والمغربي المتخصص على غرار المعجم المتخصص في المشرق العربي، ولم يدخر مؤلفو معاجم الأندلس جهدًا واحدًا في سبيل تسهيل وتقريب كل ماهو صعب للباحث في أي مجال كان.

خاتمة:

ما تقدّم ذكره عن المعاجم الأندلسية والمغربية، يفضي بنا إلى استخلاص مجموعة من النتائج نوردها على النحو الآتي:

- أنّ التأليف المعجمي العربي الأندلسي والمغربي منذ الفتح الإسلامي للأندلس وخلال القرن الرابع الهجري، لم يظهر هكذا من العدم، بل كان للمدرسة المعجمية العربية المشرقية بمناهجها وفروعها الأثر الواضح في تأليف المعاجم المغربية والأندلسية.

- أنّ المعاجم العربية التي أَلّفت في القرن الرابع الهجري وما جاء بعده هي معاجمٌ سار فيها أصحابها على نهج من سبقوهم من مشارقة، نتيجة احتكاكهم بمؤلفات علماء المشرق العربي ولقائهم بكبار اللغويين هناك أثناء رحلاتهم التي كانوا يقومون بها نحوه.
- نستخلص أيضًا أنّ التأليف المعجمي الأندلسي والمغربي في بداياته الأولى عرف نوعًا من المحاكاة والتقليد _اللذان لا ينفيان عنه الأصالة_ لما ألّفه المشارقة في هذا المجال، وهذا كله قبل أن يبدأ المعجم العربي الأندلسي والمغربي بشق طريقه نحو الإبداع والتميز يحاكي مرحلة النضج والاستيعاب التي وصل إليها مؤلفو هذه المعاجم.
- نضج المعاجم المغربية المتخصصة التي ظهرت مع بداية القرن الخامس الهجري وإلى غاية القرن الثاني عشر الهجري، يتضح في جوانب معرفية متعددة أضافت إلى المكتبة المعجمية العربية القيمة الواضحة والثرية في النحو والفقه والطب والتاريخ وغيرها، تفيد الباحث في مجاله، كما أنها تفتح الباب أمام الباحث المتخصص في المعجمية أن يجعل واحدًا من المعاجم التي ذكرنا أو الكثيرة التي لم يسعفنا المقام بذكرها، مجالًا منفردًا وخصبًا للبحث والدراسة.

الهوامش:

[1] ألبير حبيب مطلق، الحركة اللغوية في الأندلس منذ الفتح العربي حتى نهاية عصر ملوك الطوائف، رسالة مقدّمة لنيل درجة أستاذ في الآداب، الجامعة الأمريكية بيروت، لبنان، 1965، ص 32.

[2] ابن خلدون، المقدمة، تح: عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، دمشق، سوريا، 2004، ط1، ج2، ص 168.

[3] محمد إفرخاس ونادية صلاح، رحلات المغاربة إلى المشرق ودورها في تعزيز ثقافة التواصل، دت، دط، الإمارات، ص 18.

[4] أبو العباس المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968، دط، مج 1، ص ص 385-386.

عبد العلي الودغيري، المعجم العربي بالأندلس، مكتبة المعارف، الرباط، 1984، ط1، ص 8.[5]

[6] الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، تح: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، مصر، 1984، ط1، ص 253.

[7] المرجع السابق، ص 254.

[8] نفسه، ص 284.
[9] نفسه، ص 295.
[10] عبد العلي الودغيري، المعجم العربي بالأندلس، مرجع سابق، ص 38.
[11] المرجع السابق، ص 111.
[12] الزبيدي، المرجع السابق، ص 229.
[13] عبد العلي الودغيري، المعجم في المغرب العربي إلى بداية القرن الرابع عشر الهجري، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، المغرب، 2008، ط1، ص 62.
[14] ينظر جمال الدين القفطي، إنباه الرواة عن أنباه النحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 1986، ط1، ج1، ص 244.
[15] أبو علي إسماعيل القالي البغدادي، تح: هاشم الطعان، دار الحضارة العربية، بيروت، لبنان، 1975، ط1، ص 64.
[16] للتوسع يُنظر: عبد العلي الودغيري، المعجم العربي بالأندلس، المرجع السابق، ص 25 ومابعدها.
[17] المرجع السابق، ص 47-52
[18] ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، د ت، دط، مج1، ص 7.
[19] أبو الحسن ابن سيدة، المحكم والمحيط الأعظم، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2000، ط1، ج1، ص 36.
[20] عبد العلي الودغيري، المعجم العربي بالأندلس، المرجع السابق، ص 86.
[21] المرجع السابق، ص 61.
[22] ياقوت الحموي، معجم الأدباء، تح: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1933، ط1، ج1، ص 51.

[23] ابن الأجدابي، كفاية المتحفظ في اللغة، تح: السائح علي حسين، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، دط، دت، ص 36.
[24] ينظر مقدمة المحقق، المرجع نفسه، ص 3 وما بعدها.
[25] ياقوت الحموي، معجم الأدباء، مرجع سابق، ج5، ص 2475.
[26] ينظر الودغيري، المعجم العربي بالأندلس، مرجع سابق، ص 102.
[27] سعيد بن محمد السرقسطي، كتاب الأفعال، تح: حسين محمد محمد شرف، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ط1، دت.
[28] المرجع نفسه، ص 108.
[29]يقسم بن مراد الترتيب الأبجدي إلى ثلاثة أنواع هي : المشرقي ، و المغربي ، والأندلسي وتشترك في : أبجد، هوز، حطي، كلمن، ثخذ؛ وتختلف في الباقي : سعفص (مشرقي)، وصعفض(مغربي) وسعفض(أندلسي)، وقرشت(مشرقي) و قرست (مغربي)، وقرصت(أندلسي)، ينظر إبراهيم بن مراد، المعجم العلمي العربي

المختص حتى منتصف القرن الحادي عشر الهجري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1993، ط1، ص ص 115، 116.

[30] الودغيري، المعجم العربي بالأندلس، المرجع السابق، ص 112.

[31] إبراهيم بن مراد، المعجم العلمي العربي المختص، المرجع السابق، ص ص 49-128.

[32] المرجع نفسه، ص ص 45-121.

[33] إبراهيم بن مراد، دراسات في المعجم العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1987، ط1، ص 22.

[34] الودغيري المعجم العربي بالأندلس، المرجع السابق، ص 115.

[35] ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1992، ط1،ج1، ص-ص 101-109.

[36] المرجع نفسه، ص ص 114، 115.

[37] إبراهيم بن مراد، المعجم العلمي العربي، المرجع السابق، ص 117.

[38] المعجم العلمي العربي، المرجع السابق، ص 42.

[39] عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، كشف الرموز في بيان الأعشاب، اعتنى به جبريت كولين، 1905.

[40] ينظر مقدمة كتاب أحمد بن يوسف التيفاشي، أزهار الأفكار في جواهر الأحجار، دط، دت.

قائمة المراجع:

1- إبراهيم بن مراد، المعجم العلمي العربي المختص حتى منتصف القرن الحادي عشر الهجري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1993.

2- إبراهيم بن مراد، دراسات في المعجم العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1987.

3- ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، ج1، 1992.

4- ابن الأجدابي، كفاية المتحفظ في اللغة، تح: السائح علي حسين، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، دط، دت.

5- ابن خلدون، المقدمة، تح: عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، دمشق، سوريا، ط1، ج2، 2004.
6- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، مج1، دط، دت.
7- أبو الحسن ابن سيدة، المحكم والمحيط الأعظم، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج1، ط1، 2000.
8- أبو العباس المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، دط، مج 1، 1968.
9- أبو علي اسماعيل القالي البغدادي، تح: هاشم الطعان، دار الحضارة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1975.
10- أحمد بن يوسف التيفاشي، أزهار الأفكار في جواهر الأحجار، دط، دت.
11-ألبير حبيب مطلق، الحركة اللغوية في الأندلس منذ الفتح العربي حتى نهاية عصر ملوك الطوائف، رسالة مقدّمة لنيل درجة أستاذ في الآداب، الجامعة الأمريكية بيروت، لبنان، 1965.
12-جمال الدين القفطي، إنباه الرواة عن أنباه النحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط1، ج1، 1986.
13-سعيد بن محمد السرقسطي، كتاب الأفعال، تح: حسين محمد محمد شرف، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، دط، 1992.
14-الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، تح: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، مصر، ط1، 1984.
15-عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، كشف الرموز في بيان الأعشاب، اعتنى به جبريت كولين، 1905.
16-عبد العلي الودغيري، المعجم العربي بالأندلس، مكتبة المعارف، الرباط، ط1، 1984.
17-عبد العلي الودغيري، المعجم في المغرب العربي إلى بداية القرن الرابع عشر الهجري، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2008.
18-محمد إفرخاس ونادية صلاح، رحلات المغاربة إلى المشرق ودورها في تعزيز ثقافة التواصل، الإمارات، دط، دت.
19-ياقوت الحموي، معجم الأدباء، تح: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، ج1، 1933.